نظرية ما بعد الاستعمار

إرهاصات اليقظـة الإنـسانيـة

في الفكـر والأدب

الجزء الثاني

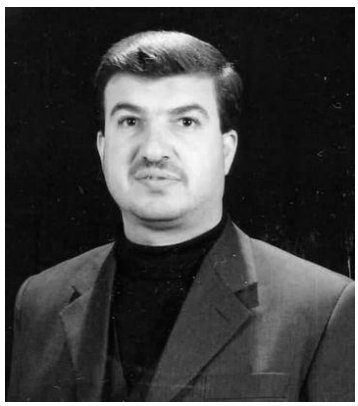

عبدالله خوراني

✍ التهجين Hybridation/ Hybridization

هذا المصطلح أو المفهوم مـن أكـثر المصـطلحات المسـتخدمة عـلى نطـاق واسـع والمثـيرة للجدل في نظرية ما بعد الاستعمار، وتعتبر المفهوم المعبر المؤثر الأقوى لإثارة وخلـق أجـواء مناقشة الباحثين والأكاديميين لقضايا ما بعد الاستعمار، وهو أحـد أكـثر المفـاهيم تكـراراً في النقد الثقافي لما بعد الاستعمار. مشتق من مجال علم الوراثة، وهو ما يعنـي الاخـتلاط بـين عرق وآخر، وفي دراسات ما بعد الاستعمار تدل على انصهار الثقافـات عـن طريـق تفكيـك المركزية الأوروبية، بعيداً عن الفكر والتصور الغربي.

أصبح التهجين موضوعا رئيسيًا في العديد من مجالات البحث والنظرية والنقد الثقافي. بينما يرى البعض التهجين موقعًا للنضال الديمقراطي والمقاومة ضد الإمبراطورية، بينما هاجمها آخرون على أنها خطاب استعماري جديد متواطئ مع الرأسمالية العابرة للحدود، متخفيًا في زي النظرية الثقافية. كان التهجين أيضًا هدفًا للهجمات التي تزعم أن المفهوم يعكس حياة منظريها، أكثر من المواقع والمجتمعات التي يكتب عنها هؤلاء المنظرون. الجدل الحاد الذي يدور حول التهجين هو أحد أعراض الجدل المحتدم حول الإمكانات السياسية، والفائدة المعرفية لنظرية ما بعد الاستعمار، بشكل عام. ولم يكتسب التهجين مكانة بارزة في وسائل الإعلام الدولية، ودراسات الاتصال، إلا مؤخرًا.

الكاتب (هومي بهابها) هو الناقد المعاصر الرائد الذي حاول الكشف عن التناقضات المتأصلة في الخطاب الاستعماري، من أجل إبراز تناقض المستعمر فيما يتعلق بموقفه تجاه الآخر المستعمَر. إن الوجود البسيط للآخر المستعمَر داخل الهيكل النصي، هو دليل كاف على ازدواجية النص الاستعماري، وهي ازدواجية تزعزع استقرار مطالبته بالسلطة المطلقة، أو الأصالة التي لا جدال فيها. أدرك (بهابها) بعد ذلك أن القوة الاستعمارية تضع بعناية استراتيجيات متطورة للغاية للسيطرة والهيمنة. أي، على الرغم من إدراكها لسرعة الزوال، فإنها حريصة أيضاً على إنشاء الوسائل التي تضمن قدرتها على التحمل الاقتصادي والسياسي والثقافي، من خلال المفهوم، على حد تعبير (ماكولاي) في (محضر عن التعليم الهندي) (١٨٣٥)[١٦٢].

يجادل (بهابها) بأن التهجين يفسد سرديات القوة الاستعمارية، والثقافات المهيمنة. يتم تفكيك سلسلة التضمينات والاستثناءات التي تقوم عليها الثقافة المهيمنة من خلال دخول الموضوعات المستبعدة سابقًا في الخطاب السائد. الثقافة السائدة ملوثة بالاختلافات اللغوية والعرقية للذات الأصلية. وهكذا يمكن النظر إلى الهجينة، في تفسير (بهابها)، على أنها سرد مضاد، ونقد للقانون، واستبعاد للروايات الأخرى. بعبارة أخرى، يريد أتباع التهجين أن يشيروا أولاً، إلى أن تناقض الخطاب الاستعماري هو توضيح واضح لعدم اليقين فيه. وثانيًا، أن هجرة (المتوحشين) بالأمس من مساحاتهم الطرفية، إلى منازل (أسيادهم)

[١٦٢] Mssu.edu/project southasia/history/primarydocs/education/Macaulay001.htm. [2]

[2]scholarblogs.emory.edu/postcolonialstudies/2014/06/21/mimicry-ambivalence-and-hybridity

تكمن وراء غزوة مباركة، من خلال (العالم الثالث)، يخلق المركز (شقوقًا) داخل الهياكل التي تدعمه. ومن ضمن منظومة الحضارة الغربية، هناك التفكير المستمر، ومراجعة الأفكار، و الممارسات السابقة، وإبداء الملاحظات، وانتقاد كل شيء سلبي لتطوير المنظومة المعرفية الغربية، وهذا يجعلنا نعترف بأنه على الرغم من كل الملاحظات المسجلة ضد النظام الغربي، في مستوى حقوق الإنسان، والانتهازية، والأخلاق الاستعمارية البشعة، فإن النظام الغربي لديه دائماً هيكل فكري لاستعراضه، وتصحيح الأخطاء والنقد. ويعترف بالممارسات على المستوى النظري، الذي يرجع إلى التوجهات الفكرية والأكاديمية ونظام الحياة، مما يجعلها تنتقد السلطات السياسية الحاكمة، واستعراض الجرائم الاستعمارية دون الإضرار بشرفهم.

ويذكر أن معظم المثقفين الذين ينتمون إلى نظرية ما بعد الاستعمار هم من غير الأوروبيين: فهم من دول العالم الثالث في آسيا وأفريقيا الذين عاشوا في الغرب، وتعلموا في الجامعات، واستمروا في البقاء في المجتمع الغربي، حيث لم يعودوا إلى بلدهم، ويمثلون موقف المهمشين، المهاجرين المنفيين، لديهم قلم وصوت لتمثيل المستعمر، يحملون ثقافة الدول الشرقية، ويكتبون باسمها، لكنهم لا يعيشون معها، يعملون على تفكيك خطاب المستعمر، لكنهم يخاطبون الطبقة الواعية المستعمرة. الغرب، من وجهة نظرهم، هو الكيان الحر، والفكري، وفي الوقت نفسه هو المستعمر الطاغية.

التهجين يعني لقاء العقول، والمزج، والاستنساخ، وهذا ما حدث في الواقع، من قبل الكتاب والمثقفين الذين يعيشون في الغرب، ويبتكرون باللغات الغربية، وفقاً للأشكال الأدبية، والجوانب المعرفية، في إطار مؤسساتهم التعليمية، بل في إطار أخلاقيات فلسفاته عن الإنسان، والعالم، وحقوق الإنسان، وثقافة المجتمع. تمزقت البلدان والشعوب من قبل المستعمرين الغربيين: فرنسا، وإنجلترا، وبلجيكا، وإيطاليا، والولايات المتحدة، وتتحدد حدودها بحدود المستعمرين الذين قسموا المستعمرات فيما بينهم. تبعثرت الخطوط، ولسوء الحظ، استمرت هذه البلدان في النظر إلى الاستعمار على أنه تمدين، وأنه النموذج الذي يجب اتباعه[١٦٣].

النموذج الغربي لم يعد نقياً، ويقتصر على شعوبه، وثقافاته، ولكنه أصبح مزيجاً من مجموعة متنوعة من المراجع والتواريخ والموضوعات. وأهم سمة في العقود الأخيرة هي ميزة التهجين. هل هي علامات على تفكك المركزية الغربية في المجال الثقافي؟ على سبيل

[١٦٣] د. جمعة، مصطفى عطية، المفاهيم المؤسسة لآداب ما بعد الاستعمار.

المثال، إذا نظرنا إلى مبتكري الأدب السردي الغربي في الواقع المعاصر، نلاحظ هيمنة كبار الروائيين من ثقافات ليست غربية، حيث إنهم انطلقوا في كتاباتهم من مراجعهم الثقافية المحلية، وكتبوا عن الموضوعات المتعلقة بالعلاقة مع الغرب، والاستعمار، والتفسيرات الدينية، والهوية، وإعادة تفسير التاريخ.. روايات ومئات المواقع على شبكة الإنترنت مليئة بأفكارها، ولها مجلات خاصة رفيعة المستوى، بل هناك دور نشر كبيرة تقتصر على جهودها الثقافية. وتؤكد العديد من الدراسات الاستكشافية أن أفكارها ومناهجها تجتاح الجامعات في أمريكا وأوروبا، بعد الفكر القديم البارد، الذي ينافر الروايات الغربية، وحركات التحرير والمقاومة، وقضايا حقوق المرأة. هناك قائمة طويلة من هذه، بما في ذلك على سبيل المثال لا الحصر: أمين معلوف، كازو إيشيغورو، طاهر بن جلون، محمد ديب، نيبال، شينوا أجابي، نور الدين فرح، غوران، أمين الزواوي.. إلخ.

التهجين يهتم بمشاكل تمثيل (الآخر) في الأدب، وكذلك في الأوساط الأكاديمية. يجادلون بما أنه لم يتم ترك أي ثقافة بمنأى عن التداول العالمي للناس والمصنوعات اليدوية والعلامات والمعلومات ، فإن الثقافة هذه الأيا م مختلطة بحد ذاتها، وتشكل مكانًا للصراع بين تمثيلات الهوية واختلافها. ومن ثم فإن منظري ما بعد الاستعمار يهتمون بالتحولات والاضطرابات، أكثر من اهتمامهم بالأصول والتجانس، وبالاختلاف أكثر من الهوية. هذا التركيز على القوة التخريبية لـ (الآخر) هو نتيجة، ليس فقط للتحليلات والملاحظات غير البنائية في تاريخ الأدب، ولكن أيضاً من جوانب السيرة الذاتية: بينما ولد سعيد في فلسطين، ولكنه قضى معظم حياته في (نيويورك). انتقل Spivak من (كلكتا) إلى (نيويورك)، وBhabha من (بومباي) عبر (أكسفورد) إلى (شيكاغو).. إن تاريخهم الشخصي يجسد حقيقة أن الثقافات الوطنية، في ظل الظروف العالمية، يتم إنتاجها بشكل مشترك، ومتزايد، من منظور الأقليات.

تعتمد نظرية ما بعد الاستعمار بشكل كبير على أفكار اللغوي والفيلسوف الروسي ميخائيل باختين (١٨٩٥–١٩٧٥) الذي استخدم (الهجينة) بمعناها اللغوي، من أجل وصف شيء خاص في نظريته. بالنسبة له، يحدد التهجين الطريقة التي يمكن بها مضاعفة اللغة، حتى في جملة واحدة، - صوت واحد يكوي، ويكشف الآخر في نفس الكلام. أعطى باختين الهجاء اللاهوتي للقرن السادس عشر (رسائل الرجال المجهولين) مع هجينها اللغوي المعقد من اللاتينية والألمانية كمثال واحد، موضحًا ما أسماه (الإضاءة البينية) للغات. وصلت هذه الإضاءة البينية، وفقًا لباختين، إلى أعلى مستوياتها خلال عصر النهضة، وساعدت في

تحفيز الابتكار والإبداع الأدبيين، وبشكل أكثر وضوحًا في أعمال فرانسوا رابليه، الذي كرّس له باختين كتابًا كاملاً (باختين ١٩٨٤).

ارتبطت فكرة الهجين بمفهومين أساسيين في فكره: (تعدد اللغات)، و (تعدد الأصوات). بينما يشير (تغاير اللغة) إلى تنوع اللغة داخل نص واحد، يتم استخدام (تعدد الأصوات) للإشارة إلى الأصوات المختلفة التي يتبناها الروائيون، مثل دوستويفسكي. أيضاً لحساب التعايش المتزامن لكل من التغيير الثقافي، ومقاومة التغيير في المجموعات.

مع التهجين العضوي، يشير باختين إلى الاختلاط غير المقصود، واللاوعي، والاندماج اليومي لعناصر ثقافية متنوعة، كما هو الحال في اللغة، على سبيل المثال. يمكن أن يكون لهذا تأثيرات مثمرة ثقافياً، لأن الهجينة اللاواعية "تحمل إمكانات رؤى جديدة للعالم، بأشكال داخلية جديدة، لإدراك العالم بالكلمات" (باختين ١٩٨١ ، ٣٦٠). بتطبيق هذا على الثقافة والمجتمع بشكل عام، يمكن للمرء أن يقول إنه "على الرغم من وهم الحدود، فإن الثقافات تتطور تاريخيا من خلال الاقتراضات غير العاكسة، والاعتمادات المحاكية، والتبادلات، والاختراعات"، على حد تعبير (بنينا فيربنر)، وخلصت إلى أنه "لا توجد ثقافة في وعن نفسها" (Werbner ١٩٩٧، ٤- ٥).

على النقيض من ذلك، فإن التهجين المتعمد هو نتيجة استخدام التناقضات، والتناقضات الواعية، في حركة متناقضة، حيث يكون صوت واحد، ضمن خطاب واحد، قادراً على كشف الخطاب الموثوق. في حالة التهجين المتعمد، هناك وجهتا نظر غير مختلطتين، ولكنهما يتعارضان مع بعضهما البعض بشكل حواري، وبالتالي خلق مفارقة ساخرة. الوعي المزدوج، تصادم بين وجهات النظر المختلفة حول العالم.

في التهجين العضوي، يندمج الخليط، وينصهر في لغة جديدة، أو وجهة نظر، أو كائن جديد؛ لكن الهجين المتعمد يضع وجهات نظر مختلفة ضد بعضها البعض، في بنية صراع. باختين يقدم نموذجًا جدليًا مهمًا بشكل خاص للتفاعل الثقافي: التهجين العضوي الذي يميل نحو الاندماج، ويتعارض مع التهجين المتعمد الذي يتيح نشاطًا تنافسيًا، ووضعًا مسيسًا، للاختلافات الثقافية ضد بعضها البعض في حوار [١٦٤].

تكمن مشكلة النظرية المركزية الغربية في طبيعة رؤيتها للثقافات الأخرى، حيث قدمت ما أسمته حقائق عن الواقع الجغرافي والثقافي للشعوب الأخرى، في مناطق أخرى، كدراسات وبحوث من الجامعات، ومراكز البحث العلمي الغربية، محاطًا بمجد علمي كبير،

[١٦٤] Wolfgang Stockhammer Hrsg. Conceptualizing Cultural Hybridization، 2012، p 25

مما أدى إلى إنشاء تقاليد، ورسائل بحث، ومعلومات معارضة للواقع، وعرضت في صورة كاذبة، ترضي غرور الغرب، وتجعل الشرق مفتوحًا له، وساحة شرعية لخططه، لاستغلال ثرواته. كان العقل الشرقي المعاصر منشغلا بالحروب والمصائب التي تسببت في ذلك، وأهمل من تسبب فيها، ورسم الخرائط التي أشعلتها.

بمعنى آخر: لقد نسي العقل الشرقي المعاصر ما فعله الاستعمار والغرب، لأنه مشغول بأزماته الداخلية، ومشاكله، والتي إذا فكّر فيها لوجد أن الكثير منها هو نتيجة الكراهية والإرث الاستعماري، الذي زاد من فقر الناس، والشعوب، والأوطان. ولم يكن هناك الكثير من إبداعات هذه الدول التي يمكن ان تندرج ضمن أدبٍ ما بعد الاستعمار، على الرغم من أنها تتعلق بعصر من تاريخنا الحديث، فقد كان شيئًا مسكوتًا عنه، بالرغم من وجود العديد من المؤلفات والمراجع الأدبية التي وثقت الحقبة الاستعمارية المليئة بنهب الثروات والفقر والقتل والتهجير.

التهجين هو حتمية مفاهيمية، والتي تفهم الديناميكيات الثقافية العالمية من خلال التعبير عن التهجين والهيمنة، مما يوفر منصة نظرية أولية لتعددية ثقافية انتقادية.

في الواقع، سعت كتابات الهجرة إلى تقويض ثقافة المركزية الغربية، من خلال طرح سلسلة من الأسئلة المثيرة للاهتمام، ومحاولة تبديد النقاء الثقافي الذي فرضته الهيمنة الاستعمارية. الأمر الذي أدى إلى ولادة فضاء جديد، يسمى فضاء التهجين، أو التهجين الذي ناقشناه سابقاً، حيث ثقافة المركز وثقافة المهاجر في مكان واحد، وهو بلد المركز، والدولة التي توجد فيها. فمدارها الثقافي، ليس الهدف استبعاد ثقافة المركز، واستبدالها بالذاكرة التاريخية للمهمشين، بل تفكيك تلك المركزية، وإضافة تلك الذاكرة التاريخية المهمشة والثقافية إليها، ثم النظر إلى الفضاء الهجين. إنه يخلق مساحة ثالثة، يجب اعتبارها حقائق يجب معالجتها واحترامها.

وكانت النتيجة - في النهاية - وجود العديد من النصوص، تنتمي إلى أدب ما بعد الاستعمار، تعرض للنقاد حالات أدبية جديدة، ومشاكل جديدة، وهياكل مختلفة، وهي: نصوص مكتوبة بلغة الاستعمار، تعبر عن ثقافة الدولة. الشعوب المستعمَرة تتبنى قضايا ما بعد الاستعمار، وتطرح روايات مختلفة عن هذه الدول، تتعارض والمعتقدات الغربية، بل تهزها، وتطالب بمراجعة جذرية لهذه التصورات..

خلقت النصوص أيضًا تعبيرات من ثقافاتهم الوطنية الشفهية والمحلية، فضلاً عن التقنيات الخطابية الجديدة، والصيغ السياسية، وصياغة المصطلحات بأحمال دلالية مختلفة، مما أضاف إلى تقاليد الشفوية الإنجليزية، وجعل اللغة الإنجليزية أكثر ثراءً في

مصطلحاتها، ومختلفة عن دلالات لغة المستعمر الأصلي، وذلك ما يمكن تسميته مقاومة في اللغة.

إنه مصطلح مهم، عندما يقرأ الناس الأدب المناهض للاستعمار بلغة المستعمر نفسه، أو يشاهده مسرحيا، أو متلفزاً، أو يستمع إلى الراديو، يتم إزالة الرعب من نفسه ضد المستعمر الأعلى المتسامي، الذي يقلل من قيمة المعيار الاستعماري، ويضعه في سياقه المحلي. ويؤدي في النهاية إلى إزاحة المركزية المهيمنة لفكرة المعيار نفسه[١٦٥].

اللـغـــة

أفضت التجربة الاستعمارية إلى بروز ظاهرة ثقافية لم تكن معروفة في التاريخ من قبل، إلا في نطاق ضيق، هي تبني لغة المستعمر وسيلة للتعبير عن مشكلات المجتمعات المستعمرة، فأصبح المستعمر غير مسيطر على تلك المجتمعات، إنما جرى استعارة لغته للتعبير عن البطانة الداخلية لمشاعرها وأحاسيسها وطموحاتها ومشكلاتها وتاريخها، بل وأعيد إنتاج موروث تلك المجتمعات بلغة المستعمر.. ولم يكن استعمال تلك اللغات بريئاً، ولا محايداً، لأنها حاملة للمرجعيات الثقافية والاجتماعية الحاضنة لها.. وأدى ذلك إلى مزاحمة اللغة الأصلية في الشرق الأوسط، وقد تأتى عن ذلك اجتثاث جزء كبير من الذاكرة التاريخية، أو تخريب الوعي بها، فلم تبق مرتكزاً للهوية، و إنما أصبحت عبئاً يذكر بالماضي[١٦٦].

غالبا ما تكون اللغة قضية مركزيًة في دراسات ما بعد الاستعمار. فقد فرض المستعمرون هيمنة لغتهم الأم على الشعوب التي استعمروها، حتى أنهم منعوا السكان الأصليين من التحدث بلغتهم الأم. وقد أشار العديد من الكتاب الذين عاشوا حقبة الاستعمار، كيف أنهم أهانوا الطلاب، وتم إذلالهم، أو حتى ضربهم بسبب تحدثهم بلغتهم الأم في المدارس الاستعمارية. في المقابل تم الفرض المنهجي للغات المستعمرين.

ودعا بعض الكتاب والناشطين، فيما بعد الاستعمار، إلى العودة الكاملة لاستخدام لغات السكان الأصليين. ويرى آخرون أن اللغة (مثل الإنجليزية)، التي فرضها المستعمر كبديل، أكثر عملية، حيث يمكن استخدام اللغة الاستعمارية لتعزيز التواصل بين الدول (على سبيل المثال، يمكن للأشخاص الذين يعيشون في جيبوتي والكاميرون والمغرب وهايتي وكمبوديا

[١٦٥] د.جمعة عطية، إشكالية اللغة في أدب ما بعد الاستعمار للقارة الأفريقية ،2 :2017

[١٦٦] إ دوارد سعيد ودراسات ما بعد الكولونيالية " الاستشراق نموذجاً، أمينة، قدوشي.

وفرنسا، التحدث بالفرنسية) ومواجهة الماضي الاستعماري، من خلال إزالة تشكيل لسان أوروبي (قياسي)، وإعادة تشكيله في أشكال أدبية جديدة [١٦٧].

السبب الأول في مناقشة هذه القضية هو أصل عملية الكتابة، قبل الحديث عن الفرع. الالتزام الأصلي للكاتب هو الإبداع في لغته الأم، لأسباب عديدة، أولاً لأنها اللغة التي تعلمها منذ الصغر، وطريقة تفكيره هي من خلال تلك اللغة، فكل سنين حياته تكون حاضرة في وعيه، إذا أراد أن يكون له تعبير، أو تخيل، باستخدام كلماته، وهياكله، والأرض، وعلاماتها، وأيقوناتها الثقافية، المتعلقة بالكلمات المنطوقة. كما يقال الإنسان يفكر ويتخيل بلغته الأم، ثم يأتي الإبداع على هذا الأساس.

يرتبط التحدث باللغة الأم ارتباطًا وثيقًا بشعور الاستقلالية والكرامة للمتحدث، الذي يختفي عندما يترك الشخص لغته الأم، ويتحدث بلغات أخرى. نمط القيم الذي تمتلكه اللغة له مفاهيمه الخاصة، وقناعاته الفكرية، والجغرافيا، والتاريخ، ودرجات التميز. اللغة نظام يقوم على الخطاب الاجتماعي والاقتصادي والسياسي للحديث عن الشعوب[١٦٨].

تم تناول الجدل النظري والأكاديمي حول اللغة بالتفصيل في *The Empire Writes Back* ، حيث يستكشف (بيل أشكروفت) و(غاريث جريفيث) و(هيلين تيفين) الطرق التي يواجه بها الكتاب لغة استعمارية مهيمنة. يصنفون العملية الى جزأين، يقوم من خلالها الكتّاب في عالم ما بعد الاستعمار، بإزاحة لغة معيارية، يُشار إليها بحرف (e) في (الإنجليزية)، واستبدالها بصيغة محلية لا تحتوي على كلمة دون المستوى، بل تعكس نظرة ثقافية مميزة من خلال الاستخدام المحلي. المصطلحات التي يطلقونها على هاتين العمليتين هي (الإلغاء) و (الإقامة)، أو التزويد:

الإلغاء، هو رفض مقولات الثقافة الإمبراطورية، وجماليتها، ومعيارها الوهمي للاستخدام المعياري أو (الصحيح)، وافتراضها لمعنى تقليدي وثابت (منقوش) في الكلمات.

التخصيص، هو العملية التي يتم من خلالها جعل اللغة "تتحمل عبء" التجربة الثقافية للفرد.. يتم تبني اللغة كأداة، واستخدامها للتعبير عن تجارب ثقافية شديدة الاختلاف.

---

[١٦٧] Scholarblogs.emry.edu/postcolonial studies/2014/06/21/language

[١٦٨] د.جمعة عطية، إشكالية اللغة في أدب ما بعد الاستعمار للقارة الأفريقية ،2 :2017

يحرص المؤلفون على الإشارة، مع ذلك، إلى أن الإلغاء وحده - على الرغم من كونه خطوة حيوية في (إنهاء الاستعمار) للغة المهيمنة - غير كاف، من حيث إنه يوفر خطر عكس الأدوار، ومجموعة جديدة من المعيارية ستحل محلها.

نمو الإمبراطوريات الأوروبية، وهيمنة القوى الأجنبية، كان لها تأثير كبير على الجوانب الاقتصادية، والسياسية، والحياة الثقافية للأشخاص الخاضعين، الذين يعانون من تشوهات جذرية في لغتهم، وقانونهم، ومجتمعهم المدني. في الواقع، التدخل الإمبريالي هو إنكار أساسي للسمات الوجودية للإنسانية.

لكن (فرانز فانون) ذهب إلى اكثر من ذلك، حيث اعتبر أن الاستعمار يفعل أكثر من مجرد حرمان المستعمَر من الاستقلال. الاستعمار، وتوابعه، والعنصرية، تضرب عمقًا أكثر في نفسية المجتمع والفرد. لقد أعاد النظام الاستعماري تمثيل الأعمال الأدبية على نطاق واسع، من خلال استبدال اللغة، مع صورة الاغتراب، والهيمنة، حيث ينظر المستعمر إلى العالم، ولا يرى سوى انعكاس للإمبريالية القوية، التي حلت محل الشعور الوجودي للآخر. المستعمر يمنع بالتالي تشكيل أي أشكال قابلة للتطبيق؛ من الحياة الاجتماعية والثقافية، وذلك من خلال خلق الاعتماد النفسي عليها، وإبراز صور مستبدلة للهيمنة، والدونية.

بعبارة أخرى: يهاجم الاستعمار جوهر الهوية في الشعوب الخاضعة لها، عن طريق إحداث شكل من أشكال المرض العقلي[١٦٩].

وهذا لا يعني أن اللغة الأم هي اللغة المحلية فقط، بل نقصد اللغة الوطنية المعتمدة في بلد المبدع. يتحدث العديدون، في بلدان آسيا وأفريقيا، اللغات المحلية، أو لهجات اللغات الشفوية، ويتعلمون - أيضًا - اللغات المعروفة عالميا، مثل الإنجليزية، أو الفرنسية. ما يهمنا هنا هو فئة الكتاب الذين يتجهون تمامًا إلى الكتابة بلغة أخرى غير لغتهم الأولى. المشكلة تكمن في تبني لغة المحتل الأجنبي، مع كل الانعكاسات السلبية للتجربة الأليمة للاستعمار الأجنبي، وما ارتكبه من ذنوب وخطايا في بلادهم، لها آثارها النفسية والاجتماعية العميقة.

يتنافس هؤلاء الكتاب مع العديد من الرغبات والتوجهات، بما في ذلك الوصول إلى قاعدة أكبر، ودائرة أوسع من القراء والمتلقين، للإثبات للآخرين أنهم قادرون على الكتابة في لغتهم، ويمكن أن يكونوا ممتازين فيها، بل ويتفوقون عليهم. كما أنها وسيلة للتمييز

[١٦٩] The Empire Writes Back (1989)

بـين المنتمـين إلى الجماعـات والأعـراق المهمشـة والمهيمنـة، وربمـا يكـون عرضـة للهيمنـة والاستعمار من قبل قوميات وقوى أقوى.

فالكتابة باللغة السـائدة، في هـذه الحالـة، تعـادل مسـألة الانتقـام، والانعكـاس الثقـافي، والانتصار الرمزي للذات. كما أنها مرتبطة بهامش الحرية الأوسع الذي يسعى إليه الكاتـب عندما يكتب بلغة غير لغته، حيث يكون مرتاحًا إلى حـد كبـير، وربمـا يتنصـل منهـا تمامًـا، بسبب قيود المحرمات والنواهي التي تفرضها عليه لغـة شـعبه، والتـي قـد تكـون مرتبطـة بالقيم والأعراف ونظام ثقافي لا يتسـامح مـع التعبـير الـذي يـذهب إلى المـدى الطويـل في ممارسة حريته دون قيود [١٧٠].

في الحالة الهندية، كان صعود الإمبراطورية البريطانية مصحوبًا بمنـاخ فكـري واحـد كـان قائمًا على تطور إمبراطورية لم تغرب فيها الشمس، وتعتمـد كليًـا عـلى تطـوره حصـراً دون الأخرين. على مستوى الدعاية، تم الاعتراف بوحشـية وبدائيـة الشـعوب المسـتعمَرة كقـيم جديرة بالإصلاح من قبل المستعمر الأبيض. لذا، فإن فرض لغة على المستعمَر كان جزءًا من المشـروع الإمبريالي، الذي يسعى - بنشاط - للسيطرة عـلى هـذه الـذات تمامًـا، والنظـر إلى اللغة المحلية كلغـة مسـيئة، أو لغـة أفظـع المسـتعمرين. تتمثـل الخطـوة الأولى في تـدمير الثقافة، في منع السكان الأصليين من التحدث بلغتهم الخاصة، كـما هـو الحـال في أسـتراليا مـع السـكان الأصـليين، لأنهـا تـؤدي إلى فقـدان التـاريخ الشـفوي، والأسـماء، والارتبـاط بالأرض[١٧١]. (هيلين جيلبرت ، جوان تومكينز ، ١٩٩٩: ٢٢٩)

هنا نلاحظ شيئًا مهمًا عن اللغة الإنجليزية نفسها في بريطانيا ، حيث بدأوا ينظرون إليها كلغة عالمية: لغة التفـوق والعلـم والحضـارة ، ثـم قـاموا بتسـويقها لشـعوب الأرض بهـذه الطريقة، بما يتوافق مع الدعاية الاستعمارية. هناك صلة واضحة بين الفترة التاريخيـة التـي ظهرت فيها اللغة الإنجليزية أكاديمياً، وتلك التـي أنتجـت الشـكل الاسـتعماري للإمبرياليـة، ابتداءً من القرن التاسع عشـر.

لقد اكتشفت الإدارة الاستعمارية البريطانيـة، بـدعم مـن البعثـات التبشـيرية، حليفًـا في قمع التمرد والسيطرة على الشعوب الأصلية، متمثلاً في الأدب الإنجليزي. (بيل أشكروفت ،

[١٧٠] الصوت والتمثيل: نهج ما بعد الاستعمار في التعليم العالي ،10 :2015

[١٧١] تم أخذ الأطفال الأستراليين من أحضان والديهم، وتعليمهم اللغة الإنجليزية، ومعاقبتهم إذا استخدموا اللغة المحلية.

١٩٨٩: ٢٦). أصبحت اللغة والأدب حلفاء أو أجنحة للحركة الاستعمارية، وهذا بلا شك عودة إلى الأدب الذي يطمح إلى الكمال البشري.

يؤكد المبدعون، في مرحلة ما بعد الاستعمار، أن الانفتاح على الكتابة باللغات العالمية لا يقلل من معنوياتهم، خاصة وأنهم لم يتخلوا عن قضاياهم الأصلية، بل يساعدون في وضعها في الخريطة العالمية للتفكير والإبداع. الكاتب المغربي الطاهر بن جللون – مثلاً - يرى أن الانفتاح على الثقافة الفرنسية لا يعني فقدان الهوية. وهو ما يعترف به الكاتب الإسباني (خوان غيتوس)، موضحاً أن الكتاب المغاربة، الذين يكتبون بالفرنسية، يعملون على مستوى المعنى بمعزل عن الآخرين، يكتبون بروح اللغة الفرنسية. بينما تدخل (أنيتا ديساي)، الكاتبة الهندية التي تكتب بالإنجليزية، في فكرة مثيرة للجدل، فإنها تنظر في التنوع اللغوي الواسع لبلدها، الذي يجعل الإنجليزية منطوقة محلياً لعشرات الملايين من الهنود، مما يجعلها لغة أخرى مضافة إلى اللغات الهندية، ضمن النسيج اللغوي للهند. (د. عطية جمعة، إشكالية اللغة في أدب ما بعد الاستعمار للقارة الأفريقية ، ٢٠١٧: ٤).

يعتقد الكتاب أنفسهم أن اللغات العالمية المنتشرة الآن عالمية، بمعنى أنه يمكن بسهولة قبولها من قبل سكان العالم كلغات تحتاج إلى تعلمها في النظام العلمي الحديث. يتم إنشاء العديد من العلوم والفنون والآداب من خلال اللغة الإنجليزية، ثم الفرنسية. هذا لا يعني ترك اللغة المحلية، أو استبعادها، بل يعني المزيد من التوسع والانتشار.

والرؤية المشتركة بين هؤلاء هي أن قضايا أوطانهم تعيش في أعماقهم، وأن المشكلة تكمن في أنهم ينتمون إلى بلدان مختلفة في لغاتها. يوجد في الهند مئات اللغات المكتوبة وغير المكتوبة، وأكثر من ٣٠٠ لغة. اللغة الإنجليزية هي اللغة الأولى تقريباً بين سكان الهند، الذين يقترب عددهم من المليار شخص، بسبب الاحتلال البريطاني للهند لعدة قرون، وظهور أجيال متعاقبة من الهنود يتقنون اللغة الإنجليزية بدرجة عالية. ويعتمد نظام التعليم على اللغة الإنجليزية كلغة العلم، بالإضافة إلى اللغة الهندية. لذلك، أصبحت لغة تتجمع حول فسيفساء اللغات الهندية المختلفة، جنباً إلى جنب اللغة الهندية التي انتشرت عبر السينما.

من ناحية أخرى، نرى أولئك الذين يختلفون مع هذا الاتجاه، ويفضلون مناقشة الكتابة في حقبة ما بعد الاستعمار، ينظرون إلى اللغة على أنها حاوية للأفكار والرسائل، يمكن اعتمادها لنقل مآسي الشعوب وحياتها اليومية. المسألة، من وجهة نظرهم، لا تقتصر على إلغاء مكانة اللغة الإنجليزية أو إنكارها، بما في ذلك من رفض لسيطرة القوة الإمبريالية ولجمالياتها ومقاييسها المفترضة، ولكن اللغة المحليّة داخل ما يسمّى بعملية (الاستحواذ)،

تعمل من أجل تحمّل عبء التجربة الثقافية للفرد، وبالتالي نكون أمام لحظة حيوية لإنهاء استعمار اللغة الأجنبية، والكتابة بها(بيل أشكروفت ، ١٩٨٩: ٦٧)

على سبيل المثال، الكتاب الذين يستخدمون اللغة الإنجليزية لا يؤيدون ولا يوافقون بالضرورة على السلطة البريطانية، ولا هم من مؤيدي الاحتلال البريطاني، لكن الأمر أكثر فاعلية بالنسبة لهم. بمعنى آخر: اللغة الإنجليزية هي أداة للانتشار في العالم الخارجي من جهة، وفي الداخل أيضًا.

مثال آخر هنا هو الدولة الواقعة في جنوب إفريقيا، ولديها ١١ لغة رسمية، جميعها مكتوبة، ولغات منطوقة، لكنها في الواقع لا يتحدث بها كثير من الناس، لأسباب عرقية، ووطنية. فهنا تُستخدم اللغة الإنجليزية باعتبارها اللغة الأكثر شيوعًا، على الرغم من أن نظام الفصل العنصري هو الذي فرضها على السكان، مما ترك تجربة مريرة فيهم.

استخدام لغة المستعمر الأدبية، وإعادة تدوير مفرداتها، وتعديلها، وتكوين رموز جديدة، وتقديم كل ذلك للقارئ الغربي، أو المحلي، الذي يعرف اللغة الأجنبية؛ يؤدي في النهاية إلى الاعتراف بالاختلافات بين الدلالات، وغالبًا ما تحمل المفارقات الساخرة، وبعض الكلمات معاني مزدوجة، مما يثري النصوص [١٧٢].

فمثلاً، في حالة رائد نظرية ما بعد الاستعمار، هناك مفارقات عدة في حياته، تتعلق بخلق فكرته عن النظرية؛ فالتصدع الاسمي في وعي (إدوارد سعيد) لم يكن المفارقة الوحيدة له، إذ يذكر بعدها مباشرة مشكلة أخرى مقلقة في حياته، ألا وهي لغته، فهو لم يعرف أبداً أي لغة كانت لغته الأم، فاللغتان العربية والإنجليزية كانتا حاضرتين في طفولته الأولى: "ما أعرفه هو أن اللغتين كانتا موجودتين دوماً في حياتي، الواحدة منهما ترجع صدى الأخرى، ويستطيع كل منهما إدعاء الأولوية المطلقة، من دون أن تكون هي فعلاً الأولى. وأنا أعزو مصدر هذا الاضطراب الأولي إلى أمي، التي أذكر أنها كانت تحدثني بالإنجليزية والعربية معاً".

كانت الازدواجية اللغوية من أسباب زعزعة الوعي بالذات، وفي بدايات التشكل عبر سياقها التاريخي والاجتماعي والثقافي، إذ لم يفهم من أين تسللت اللغة الإنجليزية إلى أمه العربية، وكذا كونه هو الفلسطيني العربي الذي ولد في القدس، وترعرع بالقاهرة، ثم انتقل للعيش في لبنان، أي العالم الذي تنتمي إليه عائلته العربية من جهة، والعالم الكولونيالي الذي تربى ونشأ فيه، من جهة أخرى. "لقد اختبرت دوماً الشعور بالغربة

---

[١٧٢] Helen Gilbert، Joanne& Post-colonial Drama:Theory، Practice، Politics، 1996

المزدوجة، فلا أنا تمكنت كليا من السيطرة على حياتي العربية في اللغة الإنجليزية، ولا أنا حققت كلياً في العربية ما قد توصلت إلى تحقيقه في الإنجليزية. هكذا طغى على كتاباتي كم من الانزياحات والتغايرات والضياع والنشوة"[١٧٣].

تم تطوير الإدخالات النقدية التي يمكن أن تستجيب لهذه النصوص الإبداعية. وقام مؤلفو كتاب (الإمبراطورية ترد بالكتابة) بتقسيمه إلى أربعة مداخل رئيسة:

- المدخل الوطني، أو الإقليمي: الذي يسلط الضوء على سمات محددة لثقافة وطنية أو إقليمية معينة. فهم يعتبرون أن النصوص - كتعبير عن الثقافة الوطنية، على مستوى اللغة والعادات والتقاليد والروابط المشتركة التي تجمع الناس معًا في مجتمع واحد - إطار وطني، يتحدث بلغة واحدة، مع الكثير من التجانس الثقافي.

- المدخل العرقي: الذي يرصد سمات معينة تشترك في مواقف وطنية متنوعة، كما في التراث المشترك للأدب الأفريقي، أو ما يسمى بالكتابة السوداء. وهنا نلاحظ أن هذا اللون من الكتابة كان له صدى ورد فعل للكتابة المعادية، التي تثير العرق الأبيض، وتدعم ثقافته، وتحتقر الأجناس الملونة. المصطلح هنا مخصص لمعارضة هذا الصعود اللاإنساني، حيث كان يجمع بين عدة أشكال أدبية من الشعر والسرد والدراما والبحث، وكذلك للتعبير عن العرق الأسود، والذي يتنوع أيضًا في جنسياته ومكوناته الثقافية.

- المنهج المقارن: الذي يسعى إلى دراسة خصائص لغوية وتاريخية وثقافية معينة، يشارك فيها واحد أو أكثر من أدبيات ما بعد الاستعمار. إنها نتيجة الأدب المقارن، الذي يناقش الظواهر اللغوية، أو الثقافية، أو الأدبية، ضمن نوع أدبي واحد، من خلال لغتين مختلفتين، أو بلغة واحدة ذات توجهات مختلفة. مثل مناقشة الصورة الاستعمارية المقدمة في الروايات الإنجليزية الاستعمارية، مع تلك الخاصة بما بعد الاستعمار. أو مناقشة الاستخدام الجمالي للغة بين الكتاب المنفيين، والكتاب الأصليين.

- نهج مقارن، ولكنه أكثر شمولاً، يركز على خصائص مثل التهجين والتوفيق، كخصائص لجميع أدبيات ما بعد الاستعمار.

يمكن دمج هذه الإدخالات معًا، أو دمجها فيما بينها، أو دمج واحد فقط كاف. يمكن تحليل النص الأدبي، أو عدة نصوص لمؤلف واحد، في الصياغات الأدبية: البنيوية، والسرد، والتفسير، والنقد اللغوي، وكذلك بالنقد الثقافي والاجتماعي والنفسي. القضية كيف أن المنهجية تكشف النص بكل المراجع والأكواد؟ خاصة النصوص التي تعبر عن حياة الشعوب

[١٧٣] إ دوارد سعيد ودراسات ما بعد الكولونيالية " الاستشراق نموذجاً، أمينة، قدوشي.

المهمشة، التي لا يعرفها القراء الغربيون والشرقيون، على حد سواء، تلك الشعوب التي مات تاريخها، ويتم ذكرها لعلامتين: خطر الاحتلال الأجنبي في الماضي، ونظرتهم على أنهم ليسوا بشرًا، أو يعيشون في حياة بدائية، وهذا لا يعني الكثير للرجل الأبيض المتحضر تمامًا، كما رأينا معاملة المحتل الأجنبي مع الأمريكيين الأصليين في أمريكا الشمالية، أو الشعوب الأصلية في أستراليا، وأمريكا الجنوبية. والخطر الثاني، هو: تخلف هذه الشعوب، وسقوطها -بعد الاستقلال- في براثن نظام حكم فاسد، كما نجد في الدول الإفريقية؛ حيث تنازع العسكريون على الحكم، وقاموا بالانقلابات، وأثقلوا البلاد بالديون، وحدثت مجاعات كبيرة، ومشقات وصعاب عديدة. (بيل أشكروفت ، ١٩٨٩: ٤١)❐